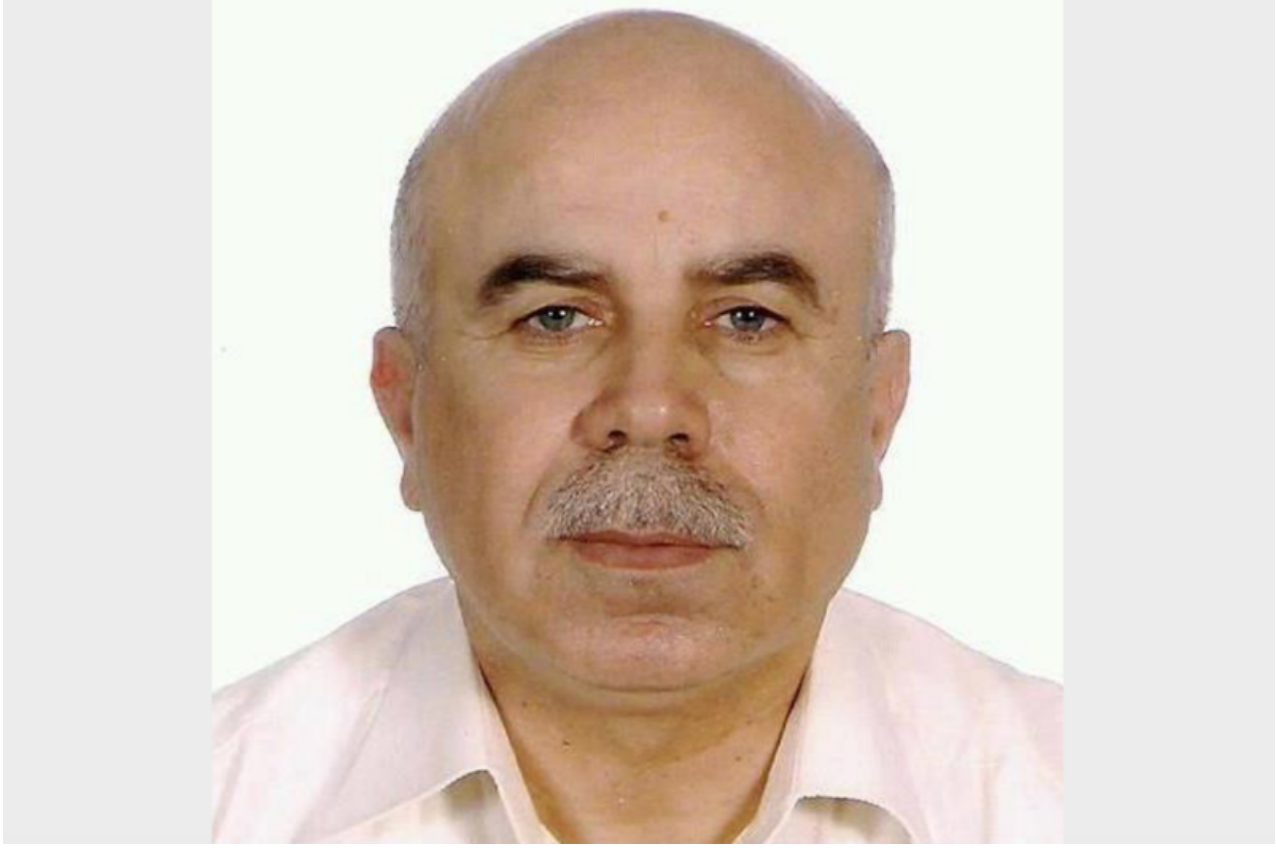


حوار مع محمد (أبو علي) صالح (١): حزب العمل الشيوعي والاعتقال وربيع دمشق

salonsyria.com/حوار مع محمد-أبو علي-صالح حول رابطة-الع

Mohammad Saleh



***ينشر هذا الحوار ضمن الطاولة المستديرة ما الذي تبقى من اليسار السوري؟**

هذا الجزء الأول من حوار من جزئين أجراه عمر عباس، يمكن الإطلاع على الجزء الثاني هنا.

الجزء الأول

يعد أبو علي صالح أحد أهم شخصيات الحراك السلمي الأهلي والمصالحة في مدينة حمص، ومن الشاهدين على أحداثها من ثورة وحرب، وفي هذا اللقاء، يشارك أبو علي صالون سورية تطور الأحداث التي خبرها هناك، إضافة لتجربته السياسية في صفوف حزب العمل الشيوعي وما شهدته في المعتقل.

كيف يمكن أن تلخص تاريخك السياسي؟

تربيت في بيت له تاريخ طويل في العمل السياسي، إذ كان أبي من الاشتراكيين العرب (جماعة أكرم الحوراني). ولعائلتي تاريخ صراع طويل في العمل السياسي، منذ أن شارك أجدادي بالنضال ضد فرنسا وإبراهيم باشا قبلها، فنحن من بقايا الفاطميين الذين جاؤوا من مصر، أي أن بيتنا بيت سياسي بالضرورة.

كيف انضمت لحزب العمل الشيوعي؟

هذا السؤال صعبٌ وسهلٌ في آن معاً. من بين الأحزاب الشيوعية السورية، لم يقبل حزب العمل الشيوعي بالتسوية مع الكيان الصهيوني، وكانت هذه مسألة هامة جداً بالنسبة لي. فأنا لا أقبل بالاعتراف بدولة الكيان، وهذا كان العامل الأساسي الذي ميز الحزب بالنسبة لي عن البقية الذين يتلقون الأوامر السوفييتية. فحزب العمل لم تكن له مرجعية خارجية، وإنما كانت مرجعيته ذاتية

تتبع لشعبه. وكى لا أنهم الآخرين، أريد أن أوضح أن هذا رأيي الشخصي بالموضوع وهذا ما رأيته. بالإضافة إلى ذلك فالحزب لم يتنازل أمام السلطات، وكان ملتزماً بمبادئ الديمقراطية منذ اللحظة الأولى، علماً بأن فهمنا للديمقراطية اختلف من فترة لأخرى، فالديمقراطية التي كنا ننشدها هي الديمقراطية الشعبية الموجودة في دول المعسكر الاشتراكي، والفكر الديموقراطي الذي نريده لم يكن ناضجاً تماماً، وإنما نضج لاحقاً مع حركة التاريخ بشكل عام.

هل ما زلت ناشطاً بالحزب؟

منذ عام ٢٠٠٠ لم تعد لي أية علاقة بالمطلق مع أي تنظيم سياسي، لكنني في الوقت نفسه لم أقطع العلاقة تماماً مع أي تنظيم سياسي، فأنا أتعامل مع الجميع من اليسار إلى اليمين ومن الإسلامي للماركسي. أسباب عدم انخراطي المباشر كثيرة، أهمها عدم تبلور فهم جديد أو برنامج مقنع للمرحلة القادمة، هناك برامج مرحلية لي علاقة مع من يقومون بصياغتها، لكن ليس عندي برامج، ولا أعتبر نفسي مخططاً استراتيجياً كي أعد برامجاً معهم أو مع غيرهم. أما الهدف المرحلي بالنسبة لي فهو إقامة نظام جديد في سوريا، نظام علماني يحترم حق الناس ويضمن المواطنة المتساوية، وهذا البرنامج الذي أود أن أعمل عليه مع أي شخص مهما كان توجهه. واللقاء مع أشخاص آخرين لتحقيق هذا الهدف مرحلي لحظي، وقد لا يستمر عندما تتحقق مطالبنا المشتركة، إذ قد يكون لكل منا برامج مختلفة، إلا أن العمل على إنجاز هذه المهمة هو الخطوة الأساسية للتأسيس.

هل تستطيع أن تتكلم عن تجربة الاعتقال؟

تجربة الاعتقال طويلة، في عام ١٩٨٧ شهدنا حملة اعتقالات شرسة بدأت بشهر آب/أغسطس ضد ما كان يسمى آنذاك بتنظيم العمل الشيوعي، ووصل فيها عدد المعتقلين لأكثر من أربعة آلاف، اعتقلت أنا في آخر الحملة يوم ١٢ شباط/فبراير ١٩٨٨. لم أتعرض للتعذيب قياساً لما قاساه بقية الشبان كوني دخلت السجن آخر الحملة، وقد اكتشفت هذا عندما التقيت بالرفاق في سجن صيدنايا وبدأ كل منا يروي تجربته. كانت تجربة الاعتقال بالنسبة لي تجربة بسيطة نسبياً، بالرغم من تجربتي للكرسي الألماني الذي يشدونك من الظهر عليه وهو يضعف المنطقة القطنية وبالتالي يسبب مرض الديسك الذي ما زلت أعاني منه بسببه، وقد أحصينا ٣٦ سجيناً بسجن صيدنايا يعانون من الديسك بسبب هذا الكرسي. بعد تمضية فترة اعتقال في فرع فلسطين لبضعة أسابيع، تمّ نقلني إلى سجن صيدنايا فيما بقي رفاق لي لفترات أطول في ذلك الفرع.

في صيدنايا كان الوضع مختلفاً كلياً، فقد كان السجن جديداً افتتح منذ أشهر فقط، واجهنا بعض الصعوبات للتأقلم مع الحياة الجديدة ضمن السجن لكننا اعتدنا عليها فيما بعد، كما عشنا في نوع من الرفاهية بالمقارنة مع السجون السورية الأخرى، حيث اشترينا كحزب مكتبة تتجاوز الخمسة آلاف عنوان من مصاريفنا الشخصية لنحسن نوعية الكتب الموجودة في السجن. ولم تمنع إدارة السجن، فكل ماكان يهمها هو أن يكون الكتاب مختوماً من مكتبة الأسد بدمشق أو وزارة الثقافة، وكنا نجلب الكتب من المكتبات والمعارض التي تقيمها وزارة الثقافة أو المكتبة وأحضرنا كتباً نوعية كثيرة من جميع الاختصاصات. وبالإضافة للقراءة كنا نعقد في السجن حلقات للنقاش بالإضافة إلى لعب الرياضة والشطرنج. فقد كنا عبارة عن مجموعة في بيت مغلق، لا أحد يتدخل بشؤوننا باستثناء الشكاوى أو حملات تفتيش.

فيما يتعلق بتواصلنا مع العالم الخارجي، كانت الإذاعات مسموحة أما التلفزيون ومصادر الأخبار الأخرى فكانت محظورة، لذا شكلنا مجموعات للاستماع للراديو، مثلاً مجموعة لنشرة راديو مونتي كارلو الدولية، وأخرى لإذاعة لندن وغيرها من الإذاعات العربية، بعدها كنا نقارن الأخبار بشكل يومي حيث ينقل كل شخص ما سمعه على إذاعته المخصصة، ولكل حدث عالمي كنا ننظم ندوة لنعطي آراءنا بما يحدث، وشهد ذلك الوقت أحداثاً كبيرة، كغزو الكويت من قبل صدام حسين، وانهيار جدار برلين. وأتذكر الفرحة العارمة التي حلت بيننا بسبب سقوط تشاوشيسكو.

ما هي طبيعة عملك؟

كنت مهنيًا أعمل بالكهرباء منذ أن كنت في سنتي الجامعية الأولى، عملت أيضاً في شركة الأسمدة العامة لمدة ثلاث سنوات. قبل الاعتقال كنت مطلوباً، فلم أستطع أن أتحرك علناً، بعدها عملت في مجال التعهدات العامة والطاقة المتجددة سواء رياحية أم شمسية لنحو ست سنوات في محافظة حمص.

هل لعبت دوراً في “ربيع دمشق”؟

تابعت إعلان "ربيع دمشق" من حمص مع الأصدقاء والمعارف، كنا نلتقي بشكل دوري لمناقشة الوضع. لم أُنق مع إعلان ربيع دمشق إلا بخمس كلمات: "نحو تغيير وطني ديمقراطي سلمي تدريجي." كنت متفقاً تماماً مع هذه الكلمات وكانت بالنسبة لي مهمة جداً. كانت لدي نظرة معينة ليست كاملة، لكنني كنت خائفاً، وأريد حركة تدريجية، فقد تربيتنا على ذات الفهم للسلطة والمعارضة، ولدينا خلفية ثقافية واحدة، الحاكم يرى نفسه مالك البلد وليس مدير لشؤونها وتشاركه المعارضة الفهم ذاته. فمن يصل لمنصب الأمين العام، يعتقد أنه يمتلك الحزب ويحيي ويميت أعضائه، وعندما يحصل التغيير المفاجئ، يخرج التافهون ليقودونا وهذا ما حصل بالفعل.

قلت للعديد من المعارضين لا تتركوا الزعران يقودونكم لأنهم سيخربون القضية، سيتمسكون بمناصبهم ولن يتوانوا عن ارتكاب المجازر ليبقوا فيها، وسيبقى حامل السلاح يغامر بحياة البشر، معتقداً بأن وجوده يعطيه القدرة على أن يحيي ويميت، حتى لو كانت مكانته صغيرة، فالمنطقة التي تقبع تحت سيطرته بانت من أملاكه. تجلى هذا لاحقاً فيما شاهدناه من عمليات نهب من قبل المسلحين (معارضة أو سلطة، عرباً أو كرداً) وفي المقاطع المصورة التي تنتشر على الإنترنت. فهؤلاء المسلحون يعتبرون أن نهب ممتلكات الآخرين من حقهم، طالما أن المنطقة تحت سيطرتهم. هذا ما كان يخيفني، كنت أريد الانتقال إلى نظام جديد وليس مجرد التحرر من قبضة حديدية لأخرى أو الحياة ضمن انفلات وفوضى أمنية.

قلت للوفد الروسي، نريد دولة تقود الأمن لا أمناً يقود الدولة كما هو الحال الراهن، هذه المنظومة الأمنية كالزعران التي تقود الدولة، وهذه النقطة تخيفني من الانهيار. نحن نقول إن النظام الحالي سيء ونعمل على بناء البديل، ونريد للمنظومة الأمنية أن تضمحل، ولكن عندما تقوم منظومة بتبني ممارساتها تحل الكارثة التي نعيشها.

أقول الكلام الذي كان علينا أن نقوله من البداية، وفعلت الحد الأدنى الذي نستطيع القيام به، كان رجال الأمن السوري يسألوننا "أين أنتم من هؤلاء الذين يخربون ويقطعون بالشارع؟" كنت نرد: "أودعتمونا بالسجن وهم في الخارج كل هذه الفترة، تركتم لهم المجال، فأنتم من زرعتم هذا الخراب، ومن يزرع الخراب ماذا سيحصل؟ نحن سنحاول زراعة شيء آخر."

و من هذا المنطلق ورداً على الضخ الطائفي والتوتر ولكي نكون جاهزين إذا ما حصل شيء، حاولنا تأسيس تجمع في حمص عام ٢٠٠٦، لكن الأمن حاربنا بشدة، كان تجمعنا صغيراً يتألف من جميع المكونات السورية السياسية والطائفية إلا أنه لم يستمر لأكثر من بضعة أشهر، لم نتفق على كل شيء، ولا بد طبعاً من وجود تباينات، ومن مهمتك أن تتحاور مع من يختلف معك لا من يتفق معك، فهذا هو الحوار، ولذلك بعد عام ٢٠٠٠ قلت لرفاقي اليساريين يجب ألا نبقى نجتمع مع أنفسنا، وألا يبقى الإسلاميون يجتمعون مع أنفسهم. علينا أن نشرع فيحوار بيننا، فلعل الحوار يرفع نسبة المشترك بيننا فوق الـ ٢٠-٢٥٪ الموجودة حالياً، اليساريون قد يتفقوا فيما بينهم على ٧٠-٨٠٪ من الأمور، والإسلاميين كذلك، فلم لا نوجد شيئاً مشتركاً فيما بيننا؟

لقد حذرت أن ما هو آتٍ أسوأ من الإسلاميين الموجودين بكثير وأكثر تطرفاً وقد أثبتت الأيام ذلك. ذكرني بذلك مجموعة من المهندسين البعثيين، فقبل فترة قالوا لي إنهم كانوا يسخرون من كلامي قبلاً، ولم يكونوا على دراية بما سيحصل، ففي عام ٢٠٠٢ حذرت من أن هناك تطرفاً قادمًا، داعياً للسماح للإسلاميين الوسطيين برؤية النور، لأن التطرف لا يكبر إلا في الظلام. حاولنا في تلك الفترة العمل معاً، لكن ضمن الحدود الدنيا، لأن عملي لساعات طويلة جداً منعني من التواصل الأسري والعمل المجتمعي، والوضع الاقتصادي السيء يصب في مصلحة أعدائك، فعليك أن تشتغل دوماً إضافياً عليك ألا تفكر بالسياسة، لم يكن ذلك مصادفة وإنما نتيجة لتخطيط وتفكير من النظام.

*نهاية الجزء الأول من الحوار. في الجزء الثاني يتحدث أبو علي صالح عن معانيته المباشرة لأحداث محورية في مسار الانتفاضة السورية، كالمظاهرات التي شهدتها مدينته، حمص، والتحرير الطائفي، واعتصام الساحة، وظروف اعتقاله على خلفية نشاطه ومعارضته للنظام السوري.